شرح القواعد الأربع

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ)

الشرح لسماحة الشيخ

صالح بن محمد اللحيدان

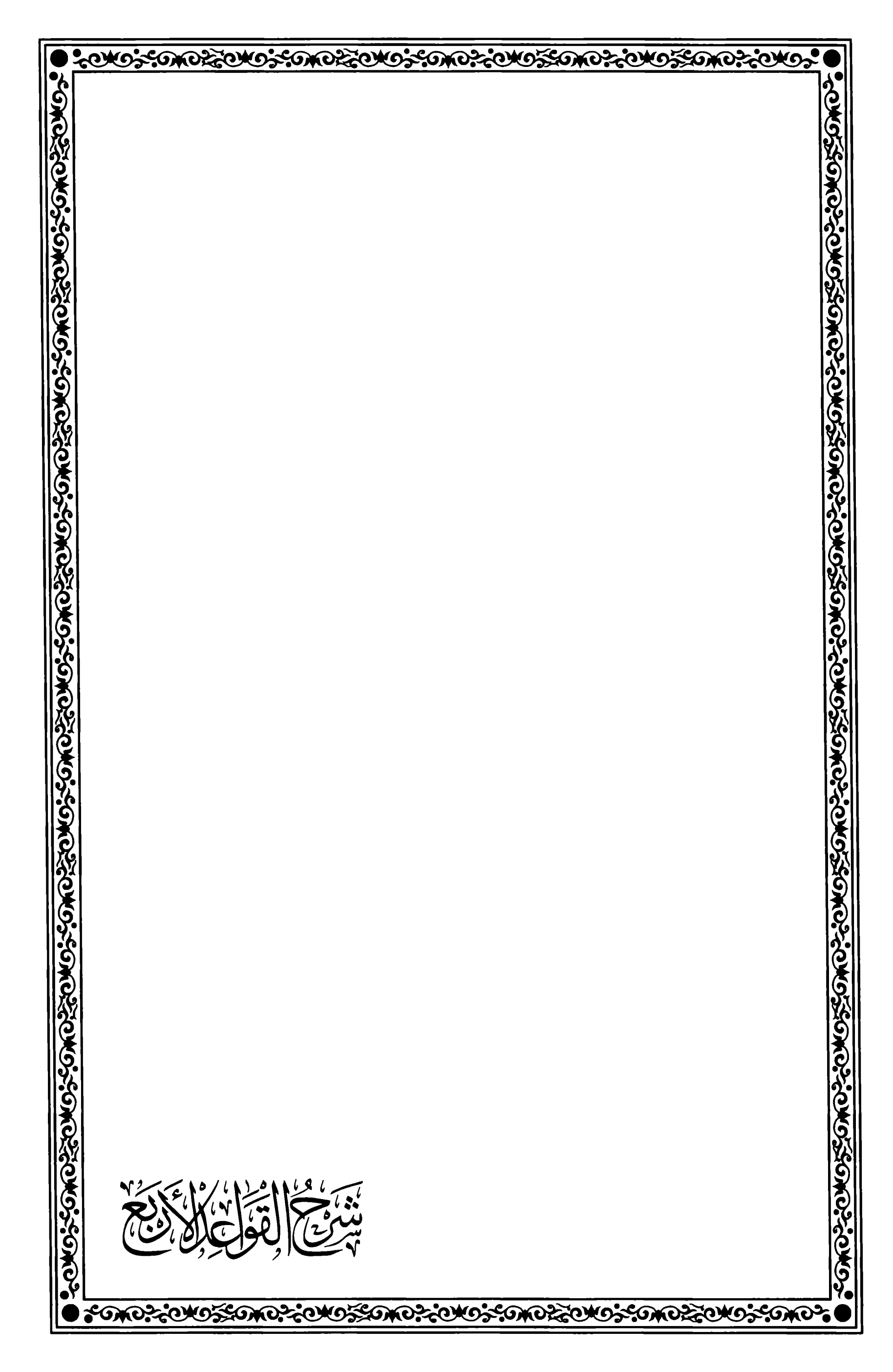
حفظه الله

اعتنى به وخرج أحاديثه

د. فهد بن صالح اللحيدان   محمد بن إسماعيل البهوار






شرح القواعد الأربع

ⓗ دار الحجاز للنشر والتوزيع ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللحيدان ، صالح بن محمد
شرح القواعد الأربع. / صالح بن محمد اللحيدان - ط١. .- الرياض ، ١٤٤٣هـ

٦٠ ص ؛ ١٥*٢١ سم

ردمك: ٠-٤-٩١٦٤٣-٦٠٣-٩٧٨

١- التوحيد ٢- العقيدة الاسلامية أ.العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٣/٣١٦٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٣١٦٠
ردمك: ٠-٤-٩١٦٤٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

شرح القواعد الأربع

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ)

الشرح لسماحة الشيخ

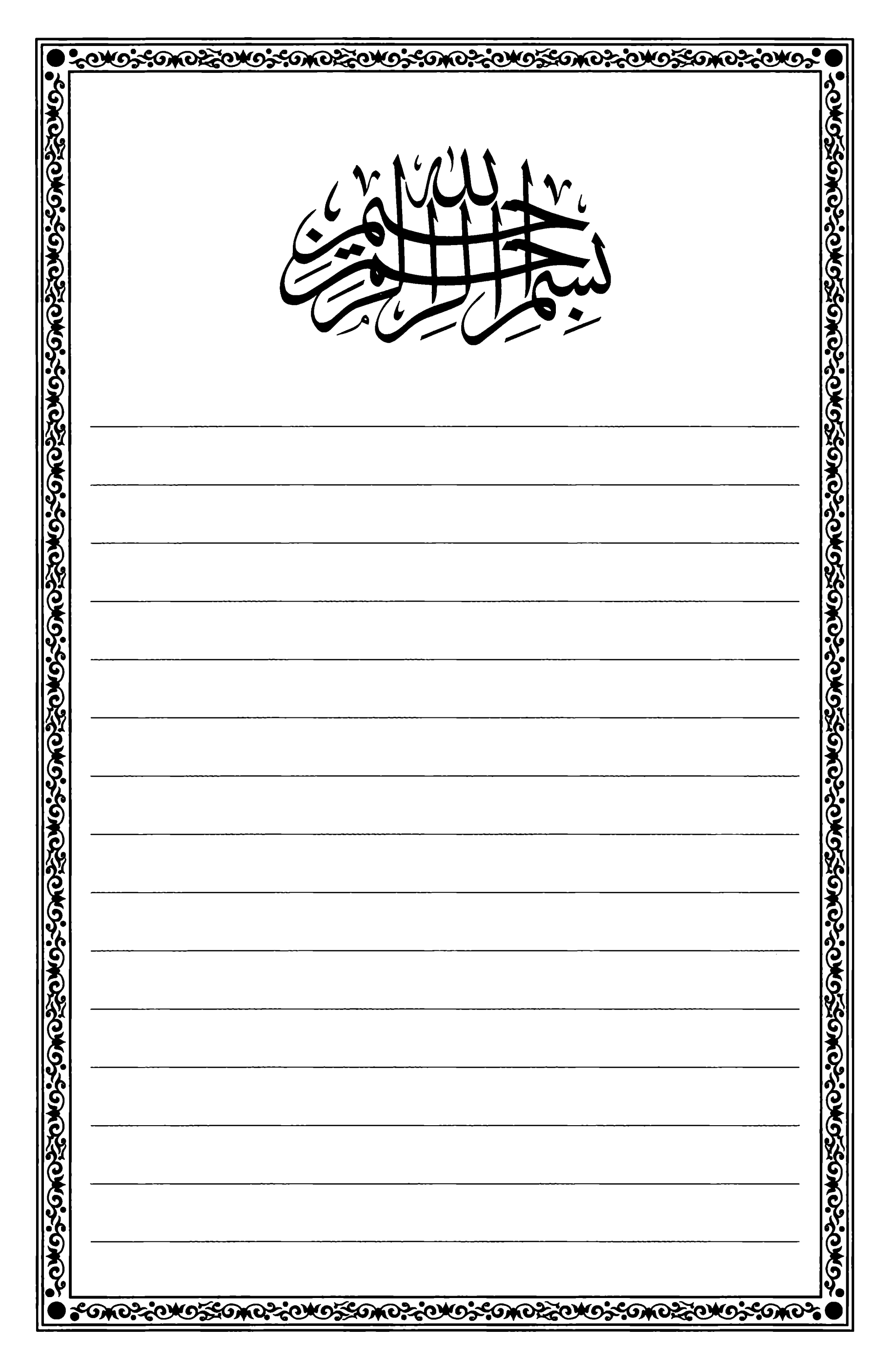
صالح بن محمد اللحيدان

حفظه الله

اعتنى بها وخرج أحاديثها

د. فهد بن صالح اللحيدان   محمد بن إسماعيل البهوار

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة الناشـــر

الحمد لله فالق الحب والنوى، وخالق العبد وما نوى، المطَّلع على باطن الضمير وما حوى، وأشهد أن لا إله إلَّا الذي بهدايته سعد من اهتدى، وبتأييده رشد من اتَّعظ وارْعَوى، وبخذلانه ضلَّ من زلَّ وغوى وحاد عن الطريق المرتجى، وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ورسوله المرتضى، بعثه بالتوحيد داعيًا إلى جميع الورى، ومبشرًا بجنات الخلد من ترك المِراء والهوَى، فصلَّى الله عليه، وأزْلفه في الحشر لديه، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ما طار طير أو هوى.

أما بعد:

فإن من أجلِّ نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن امتنَّ على عباده بإرسال الرسل، ثم جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل

العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ حيران قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد كان من فرائد عقود الجمان، التي أناط بها المولى المنان أعناق بني الإنسان، المشتاقين للنهل من روافد سنة عبده العدنان:

دروس سماحة الوالد/ صالح بن محمد اللحيدان

حفظه الله ونفع بعلمه البلاد والعباد

في جامع عثمان بن عفان بالرياض

والتي شرح فيها كتاب:

القواعد الأربع

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وبانتهاء آخر دروس شيخنا حفظه الله، انتهينا من تفريغها وترتيبها، وعملنا على ضبطها وتنقيحها، ومراجعة سماحة شيخنا -حفظه الله- في الغامض والملتبس منها، وأتممنا عملنا عليها بتخريج الأحاديث والآثار تخريجًا مختصرًا، عامدين إلى اقتصار حواشيها على ما ينفع طالب العلم، حتى لا يمل منها ولا يكل.

وما أن انتهينا بهذا الشرح المبارك إلى ثوبه الحالي، عرضناه على سماحة الشيخ الوالد؛ ليتسنى له النظر فيه على نسق الطباعة، فنال استحسانه والحمد لله، وأذن لنا بطباعته، على أن يُضاف إليه ما رأى سماحته وجوب إضافته أو استدراكه، فلله الحمد أولًا وآخرًا على توفيقه وامتنانه بإتمام هذا الشرح وإكمال أركانه.

وإذ نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم، نسأله سبحانه أن ينفع بشيخنا ويبارك لنا في علمه وعمله، وأن يجزيه عنا خير الجزاء، وأن يغفر له ولوالديه ولأهله وذريته ومشايخه الكرام، وأن يحشره تحت لواء المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زمرة السابقين الأولين مع الذين

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وأن يجعل لنا من الخير نصيبًا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده وخليله ورسوله، أنصح الخلق للخلق وأبرهم في كل قول وعمل، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ونسأل الله بأسمائه وصفاته أن يجعلنا جميعًا من خُلَّص أتباعه ومحبيه ومحبي صحابته، وأن ينفعنا ربنا -جل وعلا- بذلك في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، والحمد لله رب العالمين.

وبعد:

هذه الرسالة لشيخ الإسلام مجدد الدعوة، والذي بفضل الله جَلَّ وَعَلَا ثم بدعوته تأسست أول دولة عقيدة سلفية في قلب جزيرة العرب، وكما أشرت لم يكن في يوم من الأيام،

لا في جاهلية العرب ولا بعد الإسلام في نجد دولة، بل كان الأمر في وقت الخلافة الراشدة ووقت الخلفاء مرتبط بالمدينة، وفي خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يكن هناك استقرار واسع، لكنها تبع للخلافة، وبعد ذلك كان أمرها مربوطًا بالبصرة، أو بوالي العراق، فكان للحجَّاج نفوذه على اليمامة وما يطولها.

ولكن بهذه الدعوة الناصعة السلفية تأسست دولة تدعو إلى التوحيد، وتُعلم الناس إخلاص العبادة لله، وقد كان الشرك منتشرًا في الجزيرة: تبرك بالقبور، وطلب للحاجات من غير الله في كثير من الأحوال، ثم أنقذ الله جَلَّوَعَلَا نجدًا وعامَّة جزيرة العرب، وانتقلت هذه الدعوة المباركة إلى خارج جزيرة العرب، وبلغت الهند والشام والعراق ووصلت إلى المغرب الأقصى، وصار لها أثرها.

واستمر -ولله الحمد- أثر هذه العقيدة على هذه الربوع، كلما انزاح السلطان وتقلصت الدولة أو فُقدت، وإن كان فقدها في مدة بسيطة قصيرة، ولكن كلما زال السلطان،

ولم يبق سلطان لدولة التوحيد بقي أثـر العقيـدة سـاريًا في حواضر قلب الجزيرة وبواديها، وكانت آثـار الـشيخ الإمـام المجدد -رحمة الله عليه- آثارًا مباركة.

قال الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله تعالى-:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ ربَّ العَرْشِ العَظِيمَ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاث عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

الشرح

في هذه المقدمة من هذه القواعد الأربع يسأل ربه جَلَّ وَعَلَا لطالب العلم أن يكون من الذين إذا أعطوا شكروا، والشكر على النعم من أسباب ثباتها ونموها، وما يضاد ذلك هو كفران النعم، وهو سبب زوالها، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

يقول: الشكر على النعم، والصبر عند البلوى، والاستغفار، من وفِّق لاصطحاب هذه المسائل الثلاث إذا الله أعطاه فضلًا؛ من صحة بدن، أو انكشاف بلية،

أو حصول رزق، أو ذرية، أو زواج، أو أي شيء من المحبوبات المباحة؛ يعلم أن ذلك من فضل الله وعطائه وجوده، فيبادر إلى الشكر، إلى حمد الله الذي أنعم، فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات سواه.

وشكر الله جَلَّ وَعَلَا يكون بالقول والفعل:

بالقول: بأن يحمد الله، ويشكره على ما أعطى.

وبالفعل: بأن يبذل المال -إذا كان ذا مالٍ- طلبًا لنموه؛ لأنه يعلم أنه «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»[١].

وإذا كان ذا علمٍ علَّم النَّاس الخير؛ اغتنامًا للأجر، وليصل للناس ما يفرح به من خير؛ إيمانًا بقول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٢].

وإن كان ذا صحة في البدن استغلَّ أوقات الفراغ فيما يحبه الله جَلَّ وَعَلَا ويرضاه؛ لئلا يكون مغبونًا من المغبونين؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما في الحديث الصحيح: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»(١).

فإذا حمد العبدُ ربَّه وشكره بُورك له فيما أعطاه الله؛ من مالٍ، أو صحة، أو علم، أو أهل، أو ولد.

إذا أذنب عَلِمَ أنه مأخوذ بالذنب، وأن له ربًّا يأخذ بالذنب، فيفزع إليه ويستغفره؛ وكما جاء في الحديث يقول الله جَلَّ وَعَلَا: «**أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**»(٢).

فالاستغفار من أعظم مكاسب العبد، والإنسان إذا جلس مجلسًا ثم ختمه بالاستغفار، وكان ذلك المجلس مجلس تخليط؛ كان ذلك الاستغفار كفارة لذنبه، وإن كان المجلس مجلس خير؛ كان الاستغفار كالخاتم يختم عليه، حيث لا خطر عليه إذا أذنب استغفر(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَلِمَاتٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ**

=

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- كان الصحابة يعدون له في المجلس الواحد زُهاء مائة مرة يستغفر الله ويتوب إليه[(١)].

إذا ابتُلي الإنسان فنزلت به ضائقة أو مصيبة أو فاجعة؛ علِمَ أنها بقضاء الله وقدره، وعَلِمَ أنه لا يكشف البلوى إلا الله، وعَلِمَ أنه مِلكٌ لله، يتدرع بالصبر، ويأتي بالنطق الذي يغير الله به للخير؛ يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ

=

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا كُفِّرَ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلَا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ إِلَّا خُتِمَ لَهُ بِهِنَّ عَلَيْهِ، كَمَا تَخْتِمُ بِالخَاتَمِ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». أخرجه أبو داود (٤٨٥٧)، وابن حبان (٣٥٣/٢) ، وبنحوه أخرجه أحمد (٣٦٩/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ من قَبْلِ أَنْ يَقُومَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ». أخرجه أبو داود (١٥١٦)، الترمذي (٣٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (١١٩/٦).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث أبي بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، نحن خلقٌ من خلقه، ومِلْكٌ من ملكه، والله جَلَّوَعَلَا هو المالك الذي ملكه مطلق، لا يُسأل عن تصرفه في ملكه، له تدبير شؤون هذا الملك.

مِلْكُ البشر ملك محدود، كما يُمَلَّك الرقيق، الرقيق يملك طعامه ليأكله، لكنه محدود الملكية، والخلق كلهم عبيد الله، أما مِلْكُ الله جَلَّوَعَلَا فإنه لا يُسأل عما يفعل، والعباد يُسألون، إلا أنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الحكيم الذي تدبيره وتصريفه شؤون خلقه ليس اعتباطًا، وإنما عن حكمة نافذة، وعلم محيط بكل شيء.

يقول شيخ الإسلام: **(إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاث عُنْوَانُ السَّعَادَةِ)**، من حاز هذه الثلاث فإنه يحوز السعادة كاملة.

فنسأل الله الكريم أن نكون جميعًا ممن يعافيهم الله جَلَّوَعَلَا من البلوى، ويعطيهم ويوفقهم للشكر على ما يعطيهم، وأن يوفقهم للإكثار من الاستغفار؛ ليفوزوا بما رتبه لعباده المستغفرين.

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ -مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ-: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ: أَنَّ العِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

الشرح

قوله: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)، وهي التي لا انحراف فيها، حنيفية سمحة، وهي: أن يعبد النَّاس ربَّهم جَلَّوَعَلَا غير مشركين به.

فالحنيفية: أن يُعبد الله وحده، وأن لا يُشرك به؛ لأن من أشرك مع الله غيره في العمل تركه الله جَلَّوَعَلَا وشركه؛ كما في الحديث الصحيح: «أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ

عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

ثم إنَّ الشرك له خطر عظيم، الشرك لا يُغفر إلا إن تاب العبد إلى ربِّه قبل موته، أما إذا مات على الشرك الأكبر فلا أمل بالمغفرة، وإنما خلودٌ في نار جهنم، فكل ذنب عسى أن يُغفر إلا الشرك، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

ما بُعث رسول في جميع عصور بني آدم إلَّا وأمر الناس بعبادة الله، ونهاهم عن الشرك، ابتداءً من نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الشرك إنما وقع بعد آدم بما شاء الله من المدَّة، فلمَّا أشرك الناس أرسل الله جَلَّ وَعَلَا نوحًا، فدعا الناس إلى دين الله، وتكررت قصة دعاء نوح لقومه، حتى يَئِس منهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ودعا ربه أن لا يدع على الأرض من الكافرين ديارًا.

قوله: (أَنَّ العِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ)، العبادة بما فيها الصلاة، وبما فيها سائر القربات، التي يتقرب بها طاعة للأمر ورجاء المثوبة والسلامة من العذاب، فلا تُسمى عبادة معتبرة إلا مع التوحيد.

وإلا فهناك عبادات ولكنها غير معتبرة؛ كما يعبد أهل الأصنام أصنامهم، ومَنْ يعبد الجن، أو الملائكة، أو النجوم.

فلا تُسمَّى عبادة معتبرة إلا إذا كانت عبادة توحيد؛ أي: خُصَّ الله بها وحده لا شريك له، فلا يُصرف منها شيء لغير الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنه المعبود بحقٍّ، هو اللائق أن يُعْبَد؛ لأنه هو الخلَّاق، هو الذي خلق العباد، وخلق ما يحتاجون إليه من شؤونهم بالليل والنهار، وحفظهم من كل شيء، إلا ما قدَّره عليهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا تكون العبادة عبادة معتبرة إلَّا بذلك.

ويقصد شيخ الإسلام العبادة النافعة، وإلا فهو يعلم -رحمة الله عليه- أن الناس منهم من يعبد الجن، ومنهم من

يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد العيون الجارية بالمياه، ومنهم من يصنع صنمه بيده ثم يعبده! وقد اعترف العرب بأنهم يعبدون، فقالوا عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هم معترفون بأنهم يعبدونهم، ولكنهم يقولون: نعبدهم ليقربونا إلى الله.

قوله: (**فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ**)، مثَّل شيخ الإسلام لِمَا يُبَيِّن أنه لا يعتبر من العبادة إلا ما كان خالصًا لوجه الله بالصلاة، فإن كل مصلٍّ يعلم أن الصلاة لا تصح إذا أحدث الإنسان إلَّا بطهارة أو تيمم[1]، ولو صلَّى بغير ذلك لا تُسمَّى صلاة، وإنما تُسمى حركات وعبث، فكذلك اسم العبادة المعتبر لا يكون إلَّا لِمَنْ عَبَدَ الله وحده، أي: وحَّدَهُ فلم يُشرك معه أحدًا، بل خصَّه بالعبادة، ولا يلتفت بأي عبادة لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**». أخرجه البخاري (٦٩٥٤).

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ العَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ: مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ باللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]؛ وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الشرح

الأنبياء والرسل إنما بعثوا ليخرجوا الناس بإذن الله من الظلمات إلى النور، الظلمات الحالكة التي لا يُستبان معها الطريق: هي الشرك بالله؛ لأن مَنْ أشرك بالله ومات على ذلك فلا عمل ينفعه.

الإنسان مهما عمل من الأعمال المفيدة للبشرية التي مثلها إذا كانت من مؤمن؛ نفعته نفعًا عظيمًا، ولكنها إذا لم تكن من موحد لله فلا تنفعه، لو سُبِّلت المياه في الصدقات، وقُسمت الأموال على الفقراء، وحُشر الأطباء

لعلاج المرضى، ولكن فاعل ذلك لم يخلص العبادة لله جَلَّ وَعَلَا؛ ما نفعه ذلك الشيء، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

مهما عمل الإنسان، إذا أشرك حبط هذا العمل، لكن إن تاب وأناب وأخلص العمل لله جَلَّ وَعَلَا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر أن يعيد له ما فقد بسبب ذلك الشرك، والإنسان محتاج إلى أن يلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كل أحواله؛ ليعصمه ويثبته، فإن الإنسان لا يبقى على الحق لأصالة في رأيه وثبات عقله، فإن هذا لا ينفع إلا بتوفيق الله جَلَّ وَعَلَا.

وليس الأمر كقول من يقول[1]:

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الخَطَلِ ... وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى العَطَلِ

---

(١) البيت لمؤيد الدين الحسين بن علي أبو إسماعيل الطغرائي من قصيدته المعروفة بـ (لامية العجم). يُنظر: معجم الأدباء (١٥٣/٣).

لا يتحقق هذا إلا بتوفيق الله جَلَّوَعَلَا، فإن كثيرًا من العقلاء نافذي البصيرة إذا لم يشملهم الله بلطفه ضاعوا، وكثيرًا من الزنادقة إنما جرَّهم إلى زندقتهم تسليطهم عقولهم للحكم على الأشياء ظواهرها وبواطنها.

القَاعِدَةُ الأُولَى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

الشرح

هذه القاعدة الأولى: أن العرب الذين بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا مقرّين بأن الخالق هو الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه هو الذي يُخرج الحي من الميت، ويقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١].

لو سألتهم: مَنْ أوجد هذا البناء العزيز المحكم؟ مَنْ أوجد هذه الأرض التي يتقلب الناس فيها، ويسيرون عليها، ويزرعون ويبنون، ويرعون مواشيهم، ويأكلون من خيراتها؟ لقالوا: الله.

لم يقولوا في يوم من الأيام: إن الذي أنبت الزرع، وأدر الضرع، وأوجد هذه الكائنات: اللات والعزى، أو مناة الأخرى!! وإلا فهم مقرُّون، ويقولون عن عبادتهم: إنما يعبدون تلك المعبودات لتقربهم إلى الله زلفى، يريدون بذلك أن يتحقق لهم القُرب من الله جَلَّ وَعَلَا، وهي آثار ذلك القُرب.

وهم مع إقرارهم هذا لم ينتفعوا، لا بد أن يعبدوا موجد هذه الكائنات، وأن يخصُّوه بالعبادة ويخلصوا له، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وإذا لم يفعلوا فليس لله حاجة بهم وبعبادتهم.

والبشر محتاجون للمشاركات؛ لأن مصالحهم لا تتحقق في كثير من الأحوال إلا بإعانة بعضهم البعض؛ لأنهم

ليست لهم القدرة التَّامة والعلم النافذ على كل شيء.

وأما الخلَّاق العليم فهو مالك الملك، وخالق الكون، ومدبر شؤونه، لا يحتاج لأحد، وإنما خلق العباد ليعبدوه؛ خلق الجن والإنس لعبادته، فلا تضره معصيتهم ولا تنفعه عبادتهم، ولكنه أراد ذلك سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإذا أراد العباد أن ينفعوا أنفسهم فليخلصوا له العبادة، لا يشركوا به شيئًا، وليحذروا من أن تكون عباداتهم سبب دخولهم النار.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

الشرح

أي: أن الكفار لم ينكروا أنهم يعبدون آلهتهم، ولكنهم يعلنون أنهم يعلمون أنها لا تخلق ولا ترزق، وإنما يرون أن لها منزلة عند الله، فيتقربون إليها لتقربهم إلى الله!

والله جَلَّوَعَلَا لا أحد يقربنا إليه؛ ولهذا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. يقول المفسرون: لم يقل: فقل لهم: إني قريب، بل وجَّه الخطاب والجواب لهم فقال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ

أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ حتى يعلم كل عبد أنه لا واسطة بينه وبين الله في العبادة والطلب، ما عليه إلا أن يسأل ربه دون أن يجعل بينه وبين الله وسيطًا، لا مَلِكًا مقَرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا.

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨].

الشرح

هذا المعنى مثل معنى قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، والشفاعة التي شغلت الناس شغلًا واسعًا، وأعطيت ما لا يدخل تحت نص شرعي، زلَّ بها خلق كثير، وصار الشرك الأكبر يلبس ثوب الشفاعة.

والله جَلَّوَعَلَا بيَّن أنه لا أحد يشفع عنده إلا إذا رضي فعل المشفوع له، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فالذين لا يرضى عنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ثم لا أحد يتجرأ أن يشفع عند الله إلا إذا أذن له الله جَلَّوَعَلَا.

فالشأن في الشفعاء في الدنيا أن الشفيع يشفع لمكانته

عند المشفوع عنده، والمشفوع عنده يستجيب له لأنه محتاج أن يرضى عنه الشافع، وقد يكون محتاجًا لأن يساعده الشافع على أمور يعينه عليها.

أما المولى جَلَّ وَعَلَا فإنه الغني القوي المتين، وإنما يأذن للشافع أن يشفع إكرامًا للشافع بشرطين:

الأول: أن يكون المشفوع له مرضيَّ القول والعمل.

الثاني: أن الشافع لا يجرؤ أن يشفع إلا بعد الإذن.

فإن أكرم البشر عند الله جَلَّ وَعَلَا نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين يشفع الشفاعة العظمى التي ينتفع بها أهل المحشر أجمعون لا يبدأ بالشفاعة إلا أن يأذن له الله، وقصة الشفاعة الكبرى معروفة في "الصحيحين": أن الناس في عرصات القيامة إذا اشتد بهم الكرب، وعظم الخطب، وضاقت عليهم الأحوال من كل جهة، وصاروا في كرب لا يستطيعون تحمله، لجؤوا إلى أبي البشر، ثم إلى نوح، وإلى الخليل، وإلى موسى، وعيسى، ويتدافع هؤلاء الشفاعة، وكلٌّ يعتذر ويذكر مسوغ الاعتذار، إلا عيسى لا يذكر شيئًا، ولكن يقول: «**لَسْتُ لَهَا**».

حتى يأتوا إلى محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا يبدأ بالشفاعة، إنما يسجد لربه سجود العبد المتذلل، فلا يبدأ بالشفاعة حتى يُقال: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ...**»[1]. إلى آخر الحديث.

فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا أحد يشفع عنده إلا إذا أذن له، بخلاف البشر، فإن الشفاعة عند بعض الخلق تؤثر خوفًا من الشافع، أما فيما بين العباد وبين الله فلا شفاعة إلا لمن أذن الله له ورضي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَان: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ المَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

الشرح

الشفاعة: هي انضمام رغبة إلى رغبة، فبدل أن تكون الرغبة فردًا صارت مشفوعة بالشافع.

لكن الشفاعة المنفية: هي التي لا يكون المشفوع له مرضيَّ القول والعمل، ولا يُكرم الشافع بالتقدم للشفاعة. وقول الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية: ﴿لَّا بَيْعٌ﴾ بدأ بأقوى أحوال الاقتدار وهو البيع، فالإنسان إذا ملك البيع والشراء ملك باقي أموره، تأتي الخلة -وهي المحبة- والحبيب البالغ في محبته غايتها ينضم إلى من يحب لتحقيق المطلب، وهذه الشفاعة المذكورة في الآية هي الشفاعة المنفية.

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشرح

هذه الشفاعة المرضية التي يأذن الله جَلَّ وَعَلَا بها إكرامًا للشافع، فإن الله يكرم محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رؤوس الخلائق بأن يستجيب له في تفريج كرب يوم الموقف، وإن لم يكن رضي عمل أولئك أجمعين؛ لأن فيهم من رضي عمله، وفيهم من لم يرض عمله.

ثم الشفاعة في العفو في الإخراج من النار، يأذن الله جَلَّ وَعَلَا لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يشفع لمن شاء الله بالشفاعة له من أهل التوحيد؛ لأن أهل الشرك الأكبر لا يأذن الله لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لغيره أن يشفع لهم، ولا تنفعهم شفاعة شافع.

❁ ❁ ❁

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ: مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ المَلَائِكَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَحْجَارَ وَالأَشْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

الشرح

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله جَلَّ وَعَلَا على حين فترة من الرسل، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**»[1]، فقد بعث الله الأنبياء ليعلِّموا الناس، وكانت الأمور في نطاق ضيِّق، والله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يختم برسالة عامَّة شاملة، ويرسل رسولًا للناس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كافة، فحصلت الفترة، وحُرِّف ما عند الناس من الكتب وبُدِّل، وعبثوا بأنهم استحفظوا، ولم يتكفل الله جَلَّ وَعَلَا بحفظ ما أنزل فبدلوا.

فاختار الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للرسالة الشاملة موطنًا لم يتلوث بالحضارات، ولم تجبه الفلسفات ومخترعات الكلام، وإنما اختار موضعًا له صفاؤه، وعند أفضل بقعة على وجه الأرض، ومن خيار لغتهم، فهي اللائقة لاستقبال الوحي الشامل الذي أنزل للجن والإنس معًا، فأرسل محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانت في العرب ديانات كلها وثنية، وقلَّ أن يوجد أحدٌ باق على الحنيفية السمحة -ديانة العرب في الجاهلية- قبل أن تُسَيَّب السوائب، وتُنشر الأصنام ويُدْعَى الناس إلى عبادتها، وكانت على ملة الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فلمَّا فسدت الأحوال والعقائد بعث محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه العقيدة الصافية، التي لا تعقيد فيها، ولا آصار ولا أغلال، وإنما تنسجم مع الفطرة، وتتجاوب مع مشاعر الجِبِلَّة التي جَبَلَ الله جَلَّ وَعَلَا عليها خلقه؛ فكان هذا الدين.

كان العرب في الجاهلية لهم عبادات مختلفة، منهم من يصنع صنمًا ثم يعبده؛ كما في قصة الرجل الذي كان له صنم، وكان أقاربه دخلوا في الإسلام وبقي هو، فصاروا يحتالون عليه، فأخذوه ورموه في مزبلة، فأخذه وغسله وطيبه ونصبه في موضعه، وجاؤوا مرة وربطوه، فبال ثعلب عليه، فلما نظر وتذكر وتفكر قال بيته المشهور:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

ثم أسلم، وشهد أن لا إله إلا الله(١).

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بُعث في مكة، وحول الكعبة أصنام كثيرة نحو ثلاثمائة وستين صنمًا، ولكن الصنم الأكبر لقريش هو: هُبَل، وهو الذي نادى أبو سفيان في غزوة أحد: «أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ»، فقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأصحابه: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا:**

---

(١) الرجل من بني سليم، واسمه غاوي بن عبد العزى، وعندما أسلم سمَّاه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ راشد بن عبد ربه. يُنظر القصة في: تاريخ مدينة دمشق (٩/٣٢٥)، والبداية والنهاية (٥/٩٢).

اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، فقال أبو سفيان: «إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ»، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**»[(١)].

وكان بعضهم ربما صنع إلهه بنفسه؛ كما يُروى أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانت له عبادة غير عبادة قريش زائدة، وكانت أحوالهم أحوالًا عجيبة فيما يختارون، ولكن لا غرابة إذا انغلقت البصيرة، وانسدت المسالك؛ كما هي الحال في كثير من الديانات الشرقية التي لا أساس لها.

فالعرب في الجاهلية كانوا يعبدون الشمس والقمر والجن وغير ذلك، فجاء الله جَلَّ وَعَلَا بهذا الدين الحنيف.

وكان العرب من أهون الأمم على الأمم المجاورة لهم، لا يُحسب لهم كبير حساب، وتحتقرهم الفرس والروم، إلا أن الله جَلَّ وَعَلَا هيَّأ مقدمات قبل بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحصل اليوم الذي بين شيبان والفرس، وكان أعظم دولة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تقرب من جزيرة العرب دولتي: فارس والروم.

كان العرب لا تجمعهم عبادة -كما يقول علماء فلسفة التاريخ كابن خلدون-: لا تجمعهم عقيدة ينضوون تحتها، ويقومون لأجلها. فلمَّا كانوا في الجاهلية عقيدتهم العصبية للقبيلة؛ كانت القبائل متناحرة، ولمَّا جاء الله بهذه الملة الحنيفية، وأُشربت قلوبهم بها، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم؛ كما يقول هرقل لما سأل أبا سفيان: «فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟»، قال أبو سفيان: لا، فقال هرقل: «وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ»(١).

هذه العبادات الفاسدة للشمس والقمر، والأحجار والأشجار، والنجوم؛ كانوا يربطون كثيرًا من أفعال الله جَلَّ وَعَلَا بالنجوم؛ كما في قصة صبيحة يوم الحديبية لمَّا أصبحوا على مطر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**قَالَ:**

---

(١) أخرجه البخاري (٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ. فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

الشرح

قصَّ الله جَلَّ وَعَلَا علينا في كتابه العزيز سجود أهل سدِّ مأرب -قوم بلقيس- للشمس، وقصة تفقد سليمان للطير، وقول الهدهد لسيمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٣، ٢٤]، كانوا يسجدون للشمس، والله أعلم أن عبادات الشمس انتقلت إلى العرب من جيرانهم الفرس في الجاهلية قبل الإسلام؛ لأن الناس يتأثرون بجيرانهم عادة إذا لم يكن معهم ما يعصمهم.

كما أن عبادة الكواكب كانت مشتهرة في شمال العراق

قبل الإسلام بزمن طويل.

ومعلوم أن العرب كانوا يختلطون بالأمم وينقلون منهم وينقلون إليهم، ومما نقلوا من الأمم عبادة الأوثان، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أوَّل من سيَّب السوائب وجلب عبادة الأصنام عمرو بن لحي الخزاعي[1]، لمَّا رأى في الشام عبادات آلهة متنوعة سعى إلى ذلك ليبثه في العرب؛ ولأنهم لم تكن لديهم علوم، والعرب أمة أمية لا كتاب معهم حتى يحفظوا ما ورثوه عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما أشياء دون كتاب، فهم أميون؛ كما سماهم الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا جاء موضع الشهر، قال: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ، وَلا نَحْسُبُ**»[2]، وأشار مرة بأصابع يديه العشرة ثلاث مرات، ومرة أخرى أشار بأصابع يديه العشرة مرتين، وفي الثالثة ضم إصبعًا، فصارت تسعًا وعشرين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لاشك أن الأمية زال جُلُّها وإن بقي أثرها، فالأدلة من القرآن الكريم: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، هم ما نهوا عن ذلك إلَّا لأنهم كانوا يسجدون لها.

وبقيت بقايا متوارثة في الجزيرة عند بعض البوادي في خطاب القمر، وفي بعض القبائل -هذا شيء غير بعيد- إذا خسف القمر ينادون نداءً؛ ليخرج القمر مما هو فيه، وربما طُلِب منه بعض المطالب هي أشبه ما تكون بالعبث! لكنها بقايا من الأمم السابقة؛ كما بقي في عهد الصحابة؛ كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ»[1]، وأمثال ذلك، لكنها لم تكن مقصودة.

---

(١) أخرجه مسلم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/١٦٨): «قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ» ليس هو حلفًا، إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها فى كلامها غير قاصدة بها حقيقة الحلف، والنهي إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف؛ لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا هو الجواب المرضي، وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل النهي عن الحلف بغير الله تعالى، والله أعلم».

وَدَلِيلُ المَلَائِكَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ [آل عمران:٨٠].

الشــرح

ما نهاهم الله عن ذلك إلَّا لأنهم يعبدونهم، بالنسبة للملائكة بقي عندهم من بعض المعابد، مثلًا: مما بقي كما مدح النابغة الذبياني النعمان ملك العراق، بقوله[1]:

وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ ... وَلَا أُحَاشِي مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الإِلَهُ لَهُ ... قُمْ فِي البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الفَنَدِ

وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالعَمَدِ

هذه أمور باقية عند العرب من جيرانهم.

ومن العبادات -حتى ولو لم يسجدوا لهم- أن يتبعوهم فيما يأمرونهم به، والأنبياء لا يأمرون إلا بالحق ولا ينهون إلا عن الباطل؛ ولذلك النصارى قالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: عيسى إله ثالث ثلاثة، وقالت اليهود: عُزير ابن الله،

(١) ديوان النابغة الذبياني (ص٣٤، ٣٥).

إلا أن اليهود أسلم من النصارى في تعدد الآلهة، لكنهم أشد عباد الله خبثًا.

فَنَهْيُ الله جَلَّ وَعَلَا عن عبادة الملائكة والأنبياء دليلٌ على حصول ذلك عند من بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا اتخاذ الأحبار والرهبان فهو بالتحليل والتحريم؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَمَا إِنَّهُمْ لم يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إذا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥).

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].

الشرح

معلوم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث للناس كافة[١]؛ بُعث لبني إسرائيل، والعجم، وسائر الناس.

والعرب في جزيرتهم ما كانوا يعبدون عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إلَّا ما كان من النصارى في نجران، فإنهم كانوا على النصرانية، وفيه نصارى بني تغلب، ويُقال: إنهم كانوا يتعبدون بالنصرانية إلَّا حين ما يريدون، لكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوث إلى الناس كافة، وإلى هؤلاء الذين

---

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**».
أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

يعبدون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا ما قاله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧].

الشرح

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أن من كانوا قبلنا كانوا يعبدون الصالحين، وجاء ذكر وَدٍّ ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرٍ، وأن هؤلاء أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلمَّا ماتوا صوَّر أولئك الصُّوَر لهم ليتذكروهم، ثم صاروا يعبدونهم[1].

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

والعرب انتشرت فيهم هذه الأسماء، فمن العرب من كان يُسمى عبد يغوث في الجاهلية، كأحد شيوخ القبائل اليمنية الذي أُسر في حرب كلاب، وقُتل وهو يقول[(١)]:

أَمَعْشَرَ تَيْمٍ قَدْ مَلَكْتُمْ فَأَسْجِحُوا فَإِنَّ أَخَاكُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيَا

أسجحوا: بمعنى يسروا وسهلوا، والبواء: السواء، أي: أن المقتول ليس كمثلي في الكفاءة.

فكانوا يسمون عبد هبل؛ كما يسمون في بعض قرى مكة عبد العزى، وعبد اللات؛ الأشجار والأحجار والجن.

---

(١) هو: عبد يغوث بن صُلاءة بن ربيعة الحارثي من بني الحارث بن كعب، من قحطان، من فرسان اليمن وشعرائها في الجاهلية، اختلف المؤرخون في نسبه؛ فقيل: ابن الحارث، وقيل: ابن وقاص. كان قائد قومه وسيدهم، أسره بنو تميم في يوم الكُلاب الثاني، وهو يوم مشهور من أيام الجاهلية بين بني الحارث وبني تميم، وفي الأَسْر شدوا لسانه لئلا يهجوهم، فأشار إليهم ليحلوا لسانه ولا يهجوهم، ففعلوا، فقال شعره هذا. يُنظر: العقد الفريد (١٩٩/٥).

وَدَلِيلُ الأَحْجَارِ وَالأَشْجَارِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩، ٢٠].

الشرح

هذه الأسماء الثلاثة قيل: مناة مأخوذة من المنَّان، واللات من الإله، والعزى من العزيز.

ومناة: صخرة كانت تُعبد في بني هزيل.

واللات: رجل كان يَلِت للناس السويق، ثم عظَّموه لإحسانه، فصار يُعبد في الموضع الذي كان فيه(١).

وأما العزى: فشجرة بقرب مكة في طريق جدة، وهي التي بعث النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالدَ بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليقطعها(٢).

ثم في العصر الأخير الذي قام بالدعوة فيه شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ كان الناس في وسط الجزيرة

---

(١) أخرج البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ».

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٤٧٤).

يتقربون إلى الأشجار، وتلتجـئ النـساء إلى بعـض فحـول النخل تطلب منه تحقيق الحمل وغير ذلك!

وقيل -والله أعلم-: إن دقيق (صـنو) النخلـة يفيـد في مساعدة الرجال على الإخصاب والإنجاب، والله أعلم.

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، ويَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ...»، الحديث[1].

الشرح

هذه الشجرة في الجاهلية كانوا يعلِّقون بها أسلحتهم تبركًا بها؛ ليتحقق لهم النصر في حربهم.

يقول أبو واقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا مررنا بها ورأينا هذه الشجرة وما يُصنع حولها ونحن حديثو عهد بالجاهلية، يعني: ليسوا بعيدين عمَّا كانوا عليه من عبادة الأصنام والتبرك بالأشجار، وهذه الشجرة تسمى (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فقالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ)، فقال

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (٣٤٦/٦)، و ابن حبان (٩٤/١٥)، وأحمد (٢١٨/٥)، والطبراني في الكبير (٣٢٩١). قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]، **وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**».

فبنو إسرائيل لَمَّا اجتازوا البحر بعد أن أمر اللهُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر وصار اثني عشر طريقًا، وصار الماء كل فِرْق منه كالطَّوْد العظيم؛ كالجبل العالي، فلمَّا نجوا، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨، ١٣٩].

ولمَّا قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المقالة، قال: «**إِنَّهَا السُّنَنُ**»، وفي الحديث الآخر: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا**

جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»(١)، وفي لفظ: **«لَتَرْكَبُنَّ طَرِيقَتَهُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لا يَكُونَ فِيهِمْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ فِيكُمْ مِثْلُهُ»**(٢)، أي: أن ما حصل في الأمم السابقة من ضلالات سيحصل في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد حصل شيء كثير من ذلك، وقد يأتي شيء لم نسمع به ولم نره. نسأل الله الهداية لعباده جميعًا.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٨٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦١/٧): «وفيه من لم أعرفه».

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ؛ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ!

الشرح

رحمة الله على الشيخ، ففي الأزمنة الأخيرة إذا شبَّ حريق أو حدث حادث عظيم رفعوا أصواتهم لدعاء من يعتقدون أنه يكشف الضر، يدعون غير الله. أمَّا العرب في الجاهلية إذا مسهم الضرُّ ضَلَّ من يدعون -أي: ضاع وتركوه- والتجئوا إلى الله، فإذا نجوا عادوا إلى آلهتهم.

والذين عناهم الشيخ -رحمة الله عليه- كانوا إذا حلَّت بهم المكاره ونزلت بهم الخطوب يفزعون إلى من يعظمونه من جن أو غيرهم، فقال هذه المقالة: أن المشركين السابقين كانوا يلتجئون إلى الله عند الشدائد، وأما هؤلاء فإنهم عند الشدائد يلتجئون إلى من لا يدفع ضرًّا ولا يبعد شرًّا، وجعل الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الدعوة البركة العظيمة المباركة.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

تَمَّتْ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ.

الشرح

يعني: أن العرب في الجاهلية ومن على شاكلتهم كانوا إذا ركبوا في الفلك -السفينة- وجاءت العواصف، وهم يعلمون أن آلهتهم لا قدرة لها على تسخير الموج ولا إخراج الفلك من موقعه، التجئوا إلى القادر على كل شيء، الذي يُسكن الريح، ويُنجي من شاء أن ينجيه.

فعندما تأتي هذه الكروب يفزعون إلى الله، فإذا نجَّاهم من كربهم عادوا! وهذه طبيعة بني آدم، والله يقول عمَّن يطلبون العودة: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، أي: أن هؤلاء الذين يطلبون الرجعة ليعملوا صالحًا لو رُدُّوا من قبورهم وموتهم إلى الدنيا لعادوا لِمَا نُهوا عنه، أي: أن طبيعة بني آدم الظلم؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

نسأل الله جَلَّوَعَلَا أن ينفعنا بهذه الرسالة، وأن يصلح أحوالنا، وأن يهيئ لنا جميعًا من أمرنا رشدًا، وأن يمنحنا الرغبة في الوصول إلى مرضاته، والتوفيق بالإحسان إلى أنفسنا وإلى إخواننا المسلمين، وأن يوفقنا للدعاء لأنفسنا وأمتنا وإخواننا بأن يهدي الله -جل وعلا- ضالنا، ويعلِّم جاهلنا، وينصر مظلومنا، ويقهر عدونا، ويحفظ لبلادنا أمنها، وينشر الأمن على بقية بلاد الإسلام في ظل تحكيم شريعة الله وعبادته سبحانه وتعالى، والاستعداد لملاقاة الأيام المقبلة وما فيها، فهو القادر على كل شيء، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف، بيروت.
٢ - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدين ابن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.
٣ - الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤ - ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.
٥ - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الفكر، بيروت.
٦ - السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبدالغفار البنداري - سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٧ - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٨ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩ - العقد الفريد، أحمد بن محمدبن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٠ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، طبعة ١٤٠٧هـ.

١١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

١٢ - معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٣ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

١٤ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحي بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

فهرس الموضوعات

